قرائى الذين يحبوننى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

لكل كاتب قراؤه . وما من كاتب يعدم قارئاً من كل طبقة ، ولكن المعوّل على الأوفياء الثابتين على الولاء ، فان هؤلاء طريق الرزق ، ووسيلة الاطمئنان والدعة ، ولولاهم لما عرف المرء متى يمكن أن يتاح له أن يأكل ، وإن كان لا يجهل كيف يجوع . ولست أعرف ماذا يصنع غيرى ليهتدى إلى طبقات قرائه ، ولكنى أعرف أن مصلحة البريد أغنتنى عن عناء السعى ومشقة التفكير فى الوسائل المعينة على الاهتداء ، فان رسائل كثيرة تأتينى منها فاستخلص منها العلم الذى أطلبه والمعرفة التى أشتهيها . وما أكثر ما قلت لنفسى إن الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب ومن إليهم من هؤلاء الزملاء والرصفاء ، كانوا مساكين . — أوه جداً — فما عرفت الدنيا فى أيامهم مصلحة البريد . وقد كان من الصعب ولا شك أن يعرفوا مبلغ حب الجمهور لهم وإعجابه بهم وماذا كان يمكن أن يبلغ من رواج كتبهم لو أنها كانت تطبع وتباع فى المكاتب ، وقد حرمهم هذا الحال الاستقلال عن الأمراء ومن إليهم . ومن الصعب أن يعمل المرء فى الظلام . نعم كان الواحد منهم لا يعدم تشجيعاً من الشعب ، ولكن هذا كان فلتة لا تحتسب ولا يعول عليها . ومن السهل أن يتصور المرء أن الجاحظ مثلا كان يلقى فى الطريق واحداً يتقدم إليه ويقول له : « اسمح لى . . هل أنت الذى يسمى الجاحظ ؟ . »

فيهز رأسه أن « نعم » وهو راجف القلب لأنه يخشى الاعتراف الصريح المقيّد ، لئلا يكون هذا السائل من الشرطة

فيقول الرجل : « لقد صدقوا . . أعنى أن اسمه فى محله . . على كل حال . . ثابر يا بنى ! . . فانى أتنبأ لك بمستقبل باهر . . »

ويربت له على كتفه ويمضى عنه مبتسما ، وعينه إلى الملك

الذى ينبغى أن يكون محتفظاً بمكانه على يمينه ، مرهف الأذن مقيما سنّ القلم على الدفتر المفتوح ليقيد له هذه الحسنة ـ حسنة التبرع الكريم بالتشجيع

وإذا كانت الرسائل التى ترد إلى دليلا على شىء ، فانى أكون أحب الناس ـ أعنى الكتاب ـ إلى ثلاث طبقات : ـ المرضى ، واللصوص ، وقد نسيت الطبقة الثالثة . . لا باس من يدرى ؟ . . ربما تذكرتها أثناء الكلام . وقد عرفت هذا من الرسائل التى يحملها إلىّ البريد ، كما قلت . وهذا نموذج منها :

« . . . . وبعد فانى لم أسمع باسمك من قبل ، ولكن مرضت ودخلت المستشفى ، وجاءنى زائر فترك لى كتاباً أتسلى به ، غير أنى لم استطع أن أتصفحه فى أول الأمر لشدة وطأة المرض ، فلما خف قليلا مددت يدى إليه وبدأت أطالع . وأؤكد لك أنه سرنى جدا . وأنا صحيح الجسم فى العادة ، ولكن الأمراض لا أمان لها ، كما تعرف ، فارجوا أن تبعث إلىّ بمجموعة من كتبك كلها ـ ومعها جملة ثمنها ـ استعداداً للطوارىء فان الحيطة واجبة وإن كان الأمر كله بيد الله

وتقبل سلام المعجب بك المعتمد بعد الله عليك »

وفى وسع القارىء أن يدرك مبلغ حيرتى ، فانه لا يسعنى إلا أن أتمنى لمثل هذا الرجل الصحة والسلامة ، ولكن المصيبة والبلاء العظيم أنه إذا صح وسلم كان خليقاً ألا يعود إلى كتبى ليقرأها ، فما العمل ؟ . . هذه هى المسألة ـ كما يقول هملت ـ وليس ذنبى أن الأمراض تحبب الناس فى كتبى ، فاذا كنت أسرحين أقرأ فى الصحف أن الملاريا انتشرت فان لى العذر ، فما كان هذا ظنى ، ولا خطر لى قط على بال ، ولكن مشيئة الله جعلتنى مثل « الحانوتى » الذى يسره ويفرحه ما يحزن الخلق ويبكى المفجوعين . ولهذا ترونى إذا سمعت بفشو مرض أدخل مسروراً على أهل بيتى وأقول لزوجتى : « خذى يا امرأة . . (وألقى إليها بكل ما يكون معى ، قل أو كثر) خذى وأنفقى بلا حساب ، فان ما عند الله أكثر »

فتعجب وتسألنى : « ماذا جرى ؟ . . . هل ربحت ورقة يانصيب ؟ . »

فأقول منكراً عليها هذا الخاطر : « وهل مثلى يعنى بورق

اليانصيب ؟ سبحان الله يا امرأة فى طبعك ! »

فتقول ضاحكة : « ولكن ألا تخبرنى ؟ .. إننى أكاد أموت شوقاً إلى المعرفة »

فأقول وأنا أرمى إليها بالصحيفة التى قرأت فيها خبر المرض المتفشى ، وعجز وزارة الصحة عن مكافحته : « خذى واقرئى ، واشكرى الله ، وقبلى يدك بطناً وظهراً ، فلن نجوع أو نفتقر ، مادام فى الدنيا شىء اسمه مرض وشىء آخر اسمه وزارة الصحة . لقد جعلوها وزارة ... رفعوها ورقوها ووسعوها .. أليس هذا باعثاً قوياً على الاطمئنان والثقة بالله ؟ »

* * *

وقد بالغت حين قلت إنى محبوب من اللصوص وما أردت إلا أن لصاً واحداً - على ما يظهر لى الآن - هو الذى يحبنى ، فلقد تلقيت مرة كتاباً يذكر لى فيه أنه سمع باسمى وشهرتى ، فعرف أنى كاتب عظيم جداً ، فهو يكتب إلى مستنجداً فقداتهموه بسرقة كلب . والقضية معروضة على القضاء ، وكان محبوساً رهن التحقيق ، ثم أفرجوا عنه بالكفالة الشخصية ، وهو يحتاج إلى محام يدافع عنه ولكنه لا مال معه فهل أستطيع أن أدله على محام كريم ، أو أعينه بطريقة أخرى ..؟ وهو يترك الأمر بين يدى واثقاً من مروءتى وكرمى فان مثلى لا يخيب من يقصده

هذا هو الزبون الجديد ، وقد قلت لنفسى لما تلقيت هذا الكتاب العجيب : « والله نجحت يامازنى ! .. بلغت شهرتك أخفى الزوايا وتغلغلت إلى لصوص الكلاب .. ماشاء الله ! . أحسب أن اللص حين يخرج إلى السرقة بعد اليوم ، ستقول له زوجته أو أمه أو لا أدرى من غيرهما :

« هل أنت متأكد أن معك كل ما تحتاج إليه ؟ »

فيقول : « أيوه .. أيوه »

فتقول : « احذر أن تكون نسيت الطفاشة ! .. العدة كلها معك ؟ .. »

فيقول : « قلت لك أيوه .. ألا تسمعين ؟ »

فتقول : « والمازنى ؟ .. هل أخذته معك ؟ .. »

فيقول : « أوه .. طول الليل وأنا أقرأ كتابه .. وهل أستطيع أن أعمل شيئاً دون أن أقرأه ؟ .. أتظنينى مغفلا ؟ أم تحسبين أنى حديث عهد بالفن ؟ »

فتقول : « لا .. إنما أردت أن أطمئن .. واسمع .. امش بحساب .. والبس القفاز قبل أن تلمس أى باب أو مفتاح أو حائط .. حاذر ! »

فيقول : « اطمئنى .. كل شىء على مايرام .. ومعى المازنى فلا تخافى ولا تقلقى »

ويلمس صدره حيث وضع الكتاب تحت ثوبه

* * *

ولكل قاعدة شذوذ واستثناء . وقد حدث منذ بضعة أيام ما كاد يغرينى بتغيير رأيى فى طبقات القراء الذين يحبوننى ويؤثرونى على من عداى من كتاب هذا الزمان . ذلك أنى كنت مدعوا إلى مأدبة عشاء فاتفق أن أجلسونى إلى جانب سيدة عجوز شمطاء ، ودار الكلام على الأكل وكان بعض الذين يخاطبونى يدعونى : « الأستاذ » والبعض يؤثر أن يرفعنى درجة فيقول لى : « يا بك » ولكنه لم يدعنى باسمى أحد كأنه عيب لا يليق أن يذكر ولا سيما على مسمع من السيدات

ثم التفتت إلى العجوز وقالت : « إنى سعيدة »

فقلت باختصار : « أهنئك »

فألحت فى صرفى عن جارتى الأخرى ، وكانت فتاة هيفاء نضيرة الحسن وصوتها كالتغريد

« صحيح .. سعيدة جداً .. كل كتبك قرأناها »

فتركت الفتاة وأدرت وجهى إلى هذه العجوز وسألت باهتمام : « صحيح ؟ »

فقالت باضطراب رابنى : « كلها كلنا »

فقلت مردداً قولها : « كلكم ؟ .. كلها .. ؟ شىء جميل ؟ »

فقالت : « ابنى على الخصوص .. إعجابه بك لا حد له »

فأردت أن أستوثق وسألتها : « هل هو مريض ؟ »

قالت : « أعوذ بالله .. إن صحته جيدة جدا »

فقلت لنفسى إن هذا جديد ، فيحسن أن أتقصى الأمر وسألتها : « ألم يصبه مرض قط ؟ »

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)